

الفصل التاسع عشر

لا بد من التنبيه إلى .. السلبيات والإيجابيات

إن فيما أحسب أن أختتم هذه الدراسة - وهي لم تطل - ولكنى قلت فيما أرى الكفاية ، وأنا شخصياً وأنا أقرأ تفاصيل خلافة المنتصر بعد اشتراكه في قتل أبيه أشعر بأن الرجل أصيب باكتئاب ، وهذا طبيعي ؛ فإن قتل الإنسان لأبيه أو اشتراكه فيه أمر لا بد أن يصاب نتيجة له بشيء نفسى ؛ ولهذا فانا أحب أن أوفر على القراء عناء الاستمرار فى هذه الدراسة ، ويكفى أن القارئ عرف ما نريد أن نقوله منذ البداية ، وهو أن تاريخ المسلمين من أيام عثمان لم يعد تاريخاً ساراً أو جميلاً . حقاً كانت فيه فتوحات وانتصارات ، ولكن الخلافة نفسها أصبحت أمراً لا يسر . فقد عاش المنتصر بعد موت أبيه ستة أشهر ، وتوفى مسموماً وهو فى الخامسة والعشرين من عمره أو دونها ، وهى سن غير معقولة . وكان الرجل معظم الوقت مكتئباً بسبب وفاة أبيه ، ولا يمكن أن يقال : إنه كان يحكم ، إنما هو كان صنيعة فى أيدي الأتراك ، وكان كثير البكاء .

وعندما نصل إلى خلافة المستعين الذى تولى فى ١٤ من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م نجد الخلافة قد أصبحت شيئاً غير معقول ، فانكرها الناس وقاموا على الخليفة عندما قُتِلَ فى حرب الروم عددً من المسلمين على رأسهم عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمنى ، وكانا نابين من أنياب المسلمين ، شديداً بأسهما ، عظيماً غناؤهما عنهم فى الثغور التى هما بها ، وشق ذلك عليهم (على العامة) وعظم مقتلها فى صدورهم على قرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، ومع ما لحقهم من الأتراك من مقتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر للمسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير ، وانضم إليهم الأبناء والشاكرية تظهر أنها تطلب الأرزاق ، وذلك أول يوم فى صفر ، ففتحوا سجن نصر بن مالك وأخرجوا من فيه وفى القنصرة بباب الجسر ، وكان فيها جماعة - فيما ذكر - من رفوع (أى نواح) خراسان والصعاليك من أهل الجبال والمحمرة وغيرهم ، وقطعوا أحد الجسرين وخربوا الآخر بالنار ، وانحدرت سفنه ، وانتهدت ديوان قصص المحبسين ، وقطعت الدفاتر وألقيت فى الماء ، وانتهدوا دار بشر وإبراهيم بن هارون النصرانيين كاتبى محمد بن عبد الله ، وذلك كله بالجانب الشرقى من بغداد . (الطبرى ٩ / ٢٤٩) وهذا الخبر يدل على

شعور العامة بالخوف وإحساسهم بأنه لا توجد حكومة هناك
تحميهم أو تحمي الإسلام ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يصل إليه أمر
الحكومة .

وفى صفر ٢٥٢هـ / ٨٦٦م بدأت معركة أهل بغداد والعرب
مع الأتراك وحلفائهم من المغاربة ، وقد تولى ذلك رجل يسمى
محمد بن عبد الله ، فأحسن تسليح جنده وسار معه الفقهاء
والقضاة ، فدعا الأتراك إلى التوقف عن التماذى فى الطغيان
واللجاج والعصيان وبعث لهم الأمان ، واشترط أن يكون أبو
عبد الله المعتز خليفة بعد المستعين فإن قبلوا وإلا باكرهم
بالمقتال، وقد تجمعت معه الألوف من أهل بغداد وجموع من
الناس وأرهبوا الأتراك والمغاربة فلم يستطيعوا قبالتهم ، ولكن
الأتراك مع ذلك ثبتوا متمسكين بامتيازاتهم ، وقد سكت الناس
عن قتالهم يوماً ، فلما أصرروا على امتيازاتهم نازلهم الناس
وقتلوا منهم واستمر القتال .

وكان عدد القتلى والجرحى من الجانبين عظيماً ، وشيئاً
فشيئاً بدأ الناس ينتصرون على الأتراك ، ثم دارت معركة مع
أربعة آلاف تركى فانهزموا وقتل منهم فى الواقعة ألفان ، ومن
ذلك الحين لم يعد الأتراك إلى الرياسة مرة أخرى ، ولكننا لكى
نصل إلى هذه النتيجة ينبغى أن نقرأ أكثر من عشرين صفحة

من الطبرى كلها تفاصيل صغيرة وقليلة الأهمية ، وهى حافلة بأسماء أعلام غريبة لا يدرى الإنسان ماذا يفعل بها . والحق أننا نعجب بالطبرى على صبره فى رواية هذه الأحداث ، ولكن المعركة مع الأتراك والمغاربة لم تنته فى يوم أو شهر ، وإنما هى استمرت شهوراً ، ولكن محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين تولاها ببسالة ومهارة وكسر الأتراك وقتل منهم ومن المغاربة مرة بعد أخرى .

ولكن ذلك القتال المتصل بين الأتراك والمغاربة والشاكرية وأنصارهم من ناحية ورجال الخليفة المستعين من ناحية أخيه استمر حتى نهاية خلافة المستعين فى ذى الحجة سنة ٢٥١هـ بل استمرت الفوضى بعد ذلك بعد أن بويع بالخلافة للمعتز .

وتستمر هذه الأخبار التى توقع فى النفس الملل تجعل الإنسان يحس أن التاريخ الإسلامى فقد شخصيته ورسالته ؛ لأن التاريخ إذا لم تكن له غاية أو روح أصبح حديثاً مكرراً معاداً لا معنى له ، وهذا هو الذى أنتهى إليه أنا عندما أقرأ أمثال هذه الأخبار الطويلة المتشابهة المملة فى مراجعنا .

والحق أن تاريخنا فقد شخصيته وروحه منذ أصبح مجرد نزاع على السلطان فى ذاته ، لا شىء إذا لم تكن له رسالة ، والإسلام هو رسالة التاريخ الإسلامى ، وفى عالمنا اليوم أغنياء

يملكون الملايين ، ولكن حياتهم مملة ولا معنى لها حتى أن بعضهم يقتل نفسه ؛ ولهذا فإننى رأيت أن أقف عند هذا الحد من تاريخ بنى أمية وبنى العباس ، ويكفينى أننى صورت للقارئ خواء تاريخنا وفراغه مع أنه فى الحقيقة ينبغى أن يكون أغنى التاريخ ؛ لأنه تاريخ الإسلام ، والإسلام كله تقدم وخير .

وليس أدل على ذلك من خبر الأطروشى ، وهو الحسن بن محمد بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فهذا الرجل العلوى رأى أنه لا معنى لأن ينافس فى طلب الدولة الإسلامية ويحاول انتزاعها من بنى العباس ، ففعل ما فعله ابن عمه إدريس بن محمد بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، عندما ذهب إلى بلاد البربر وأنشأ الدولة الإدريسية خارج نطاق الدولة العباسية وخارج نطاق دولة بنى أمية فى الأندلس أيضاً ، وأخبار هذا الأطروشى قليلة ؛ لأن مؤرخينا يشغلون فى العادة بأخبار نزاع الترك والمغاربة والأشروستية على الخلافة ، وهو نزاع مرير وفارغ وبلا معنى ، ولكن الأطروشى تنبه إلى أن بنى العباس أهملوا فى نشر الإسلام فى نواحي طبرستان والبلاد الواسعة الواقعة بين نهر جيحون وبحر قزوين ، هناك بلاد واسعة دون إسلام ، مع أنها فى صميم بلد الإسلام ، فذهب فى سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م إلى بلاد الديلم والجبل ، وهى التى نسميها اليوم بلاد خوارزم ، وهى بلاد

واسعة وخصبة وغنية يسكنها ملايين الناس ، فرأى أن ينشر الإسلام فيها ؛ لأنهم كانوا أهل جاهلية ، بل كان فيهم مجوس يعبدون النار ، فاجتهد في نشر الإسلام في هذه النواحي ، وأنشأ دولة كبيرة تعتبر من أعظم دول الإسلام ، ولا تقارن إلا بالدولة الإدريسية . وأخبار هذه الدولة قليلة ؛ لأنها قامت في بلاد واسعة ، ولكن ليس فيها شعب قائم بنفسه يؤرخ لبلاده .

قال المسعودي في مروج الذهب (٤ / ٣٧٣) : إنها مواضع من بلاد الجبل والديلم في جبال شاهقة وقلاع وأودية ومواقع خشنة على الشرك إلى هذه الغابة ، وبنى في بلادهم مساجد ، وقد كان للمسلمين بإزائهم ثغور مثل قزوين وشالوس وغيرهما من بلاد طبرستان ، وقد كان بمدينة شالوس حصن منيع وبنيان عظيم بنته ملوك فارس يسكن فيه الرجال المرابطون بإزاء الديلم .

ثم جاء الإسلام فكان كذلك إلى أن هدده الأتروشي . وكان بين الأتروشي والحسن بن القاسم الحسنى الداعى حروب على بلاد طبرستان ، فكانت بينهم سجالات ، وكان الحسن بن القاسم الحسنى الداعى قد نزل الرى - وذلك سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م - فى جيوش كثيرة من الجبل والديلم ، ومعه « ما كان بن كالى » الديلمى أحد فتاك الديلم ووجوهها ، فأخرج عساكر نصر بن

أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحبه عنها ، واستولى عليها وعلى قزوين وزرخان وقم وأبهر وغير ذلك مما اتصل بالرى ، فكتب المقتدر إلى نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان ينكر عليه ذلك ، ويقول : إنى ضمنك المال والدم ، فأهملت أمر الرعية وأضعفتها وأهملت البلد حتى دخلته المبعضة ، وألزمه إخراجهم عنه ، فوقع اختيار نصر صاحب خراسان على اتفاق رجل من أصحابه من الجبل يقال لواحد منهما أسفار بن شيرويه ، وأخرج معه ابن المحتاج الجبلى فيمن معه من الجيوش إلى حدود الرى ، فكانت الموقعة بين شيرويه الجبلى وبين « ما كان بن كالى » الديلمى فاستأمن أكثر أصحاب « ما كان بن كالى » الديلمى وقواده مثل مشير وتالجين وسليمان بن شركة الإشكرى ومراد الأشكرى وفشونة بن أومرك فى آخرين من قواد الجبل ، فحمل عليهم « ما كان » فى نفر من الأتراك ، فولى « ما كان » ودخل بلاد طبرستان ، وانهزم الداعى بين يديه و« ما كان » على حاميته ، فلحقته خيول خراسان والجبل والديلم والأتراك فيهم « أسفار بن شيرويه » ومضى « ما كان » لكثرة الجيوش وانحاز الداعى ، وقد لحق بقرب « أمل » قسبة بلاد طبرستان إلى طاحونة هناك ، هناك وقد تخلى عنه من كان معه من الأنصار فقتل هناك ، ولحق « ما كان » بالديلم ، واستولى أسفار بن شيرويه على بلاد

طبرستان وجرجان وقزوين وزرخان وأبهر وقم وهمذان
والكرخ « الكرج أيضاً » لصاحب خراسان ، واستوثقت له
الأمر ، وعظمت جيوشه وكثرت ، ودعا أعوانه وتجبر وشقى ،
وكان لا يدين عمله الإسلام ، وعصى صاحب خراسان وخالف
عليه ، وأراد أن يعقد التاج على رأسه وينصب بالرى سريراً من
ذهب للملك ، ويتملك على ما فى يديه مما قد ذكرنا من البلاد
ويحارب السلطان وصاحب خراسان . فسير الحضور هارون
ابن غريب فى الحال نحو قزوين فكانت له معه حروب ،
وانكشف هارون وقتل من أصحابه خلق كثير ؛ وذلك بباب
قزوين .. ! المسعودى ، مروج الذهب ٤ / ٣٧٤ - ٣٧٥ ويكفى هذا
القدر من ذلك الخبر الهام ؛ لأنه طويل ، وهو مثال هام من أخبار
هامة ورئيسية ، ونحن لا نعرف عنها شيئاً ؛ لأن الحقيقة أننا لا
نعرف الكثير من حقائق تاريخ الإسلام ، فهذا تاريخ دولة
إسلامية كبرى أدخلت فى الإسلام ملايين البشر ومساحة ضخمة
من هذه الأرض ، وقد أنشأها وقام عليها رجل واحد من
الطالبين وهو الأطروشى هذا . وقد لقب بالأطروشى لأنه كان
قليل السمع ، أى أنه كان يعانى من ضعف سمعه ، ولكنه مع
هذا استطاع أن يكمل مساحة الإسلام من هذه الناحية التى يقع
فيها اليوم جزء كبير من بلاد ما وراء النهر وروسيا الإسلامية .
فهذه بلاد خوارزم وطبرستان . بهذه المناسبة أحب أن أنبه إلى

أن الإسلام باق في تلك البلاد إلى يومنا هذا ؛ لأن الإسلام إذا دخل بلداً لم يخرج منه أبداً ، الإسبان والكاثوليك لكي يتخلصوا من المسلمين أبادوهم بصورة بشعة ، وهذه فضيحة من فضائح التاريخ ، وما زال البشر يذكرونها إلى اليوم للإسبان أو قل للكنيسة الكاثوليكية ؛ لأن تلك الكنيسة هي - دون شك - ألد أعداء الإسلام ، وما زالت ؛ لأنها زائفة - والإسلام حقيقة - ولكنه زيف مرتب منظم ، أما نحن فعلى الرغم من أننا على الحق فإننا فى فوضى دائماً ، وفى اليوم الذى نتخلص فيه من الفوضى سنسود الدنيا ، أقصد أن الإسلام دين الله ، ولا بد أن يعم الدنيا مهما كانت العقبات فى طريقه .

وأقف هنا بهذه الدراسة ، وكفى أننى لَفْتُ أنظار القراء إلى أن كتبنا الماضية فيها الكثير مما يسئ إلينا ، ولا بد من التنبيه إلى ذلك - لا أقصد بذلك أن نتدخل فى النصوص ؛ فإن النصوص تراث ، والتراث لا يمس - ولكن يكفى أن ننبه إلى مواضع الإساءة ، ولا بد أن نشير هنا إلى أن كتابنا الماضين كانوا موضع إعجاب ، فقد حفظوا فى أذهانهم هذه الأخبار الكثيرة قبل أن يدونوها ، ونحن اليوم لدينا الدفاتر والكراسات والبطاقات ؛ لأن الورق رخيص وموجود فى كل مكان . أما فى الماضى فكان الورق غالياً - لم يكن موجوداً - وبعض مؤلفينا كانوا يصنعون الورق والحبر فى بيوتهم ، وكان الواحد منهم يجمع مواد صنع

الورق ويوقد عليها النار شهوراً حتى تنطبخ وتصير عجينة ورق ، ثم يسطرونها على صفحات خشبية وينتظرون حتى تجف ، ثم يأخذونها ويكتبون فيها . وقد ألف بعضهم كتباً فى طرق صناعة الورق والحبر . وكان بودى أن أنشر واحداً منها ، ولكن عاقنى عن ذلك كثرة المخطوطات للنص الواحد . وكان من المستحيل علىّ جمع كل مخطوطات النص الواحد حتى يكون النشر علمياً .

ويكفى أن تنظر إلى كتاب مثل مروج الذهب الذى تقع نسخته المطبوعة فى أربعة أجزاء تضم ألفاً وخمسمائة صفحة على وجه التقريب . وهذا الكتاب يضم من شتى المعلومات ما يحار له العقل ، فإن فى كل صفحة تقريباً خبراً مستقلاً ، والرجل ينتقل من خبر إلى خبر بسهولة ويسر ، وأنت لا تمل القراءة فيه أبداً ؛ فهو متنوع ، وهو جميل وطريف ، ولا بد أن الله سبحانه وتعالى - قد يسر له ذلك لحكمة عنده . فهو - سبحانه - يريد أن نعلم ذلك كله حتى ننتفع به عندما تجيء ساعة نشر الإسلام فى الأرض كلها ، ولا بد من ذلك ؛ لأن الله - سبحانه - يريد .

ونحن لدينا عن تاريخ الإسلام أربعة أصول قديمة هى على التوالى : تاريخ الطبرى ، ثم اليعقوبى ، ثم ابن الاثير ، وأبى

الفدا ، هذا عدا ما كتبه ابن خلدون - وهو عمدة مؤرخينا - وكان بعض الناس يقولون : إن ابن خلدون وضع فى مقدمته قواعد لم يطبقها فى تاريخه ، وهذا غير صحيح ، والسبب فى ذلك الخطأ هو أن أحداً لم يقرأ تاريخ ابن خلدون قراءة مدققة متفحصة ، وأنا - شخصياً قرأت تاريخ ابن خلدون كله ، فما عرفت مؤرخاً إسلامياً أرخ للرومان والروم والبيزنطيين ومذاهب اليهودية ثم المسيحية جميعاً وتاريخ الفرس ، أى أنه المؤرخ العربى الوحيد الذى كتب التاريخ القديم كتابة صحيحة. أما تاريخه للمغرب والبربر وبنى هلال وقبائلهم فشىء عجيب يدل على ذاكرة نادرة فعلاً .

أما الطبرى فهو عجيبة ، والمعلومات التى يسوقها فى تاريخه وتفسيره للقرآن شىء له العجب ، ونحن لا نطبق الصبر على قراءة كل هذه التفاصيل ، فما بالك بمن حفظها فى ذهنه أولاً ثم كتبها بهذه الدقة وذلك الشمول . وأنا قرأت الطبرى، ولكن ينبغى أن أقرر أننا نحتاج إلى دراسة النص ، فهناك العشرات بل المئات من المصطلحات الإدارية والعسكرية والفنية نحن لا نعرفها ، ومن أسف أنه لم يبق لى من أيام العمر ما أنفقه فى التعرف على معانى هذه المصطلحات ، ولا أرى بين الشباب الجديد من أتصور أنه يصبر على مثل هذا البحث . على أى حال أنا أنبه ، وعليكم أن تنظروا فى التنفيذ .

أما ابن الأثير فمؤرخ عجيب . إنه مؤرخ صحفى الروم . أى أنه مغرم بالبحث عن الأخبار وإيرادها ، وهو أحياناً يوجز كلام الطبرى ، ولكنه أصيل فى أحيان كثيرة ، وتاريخه الذى بين أيدينا ينتهى فى أواخر القرن السادس الهجرى . وهو أساسى ورئيسى بالنسبة للعصور القريبة من عصره .

أما أبو الفدا صاحب « المختصر فى أخبار البشر » فهو أمير أيوبى مؤرخ ، وهو يعترف بأنه أحياناً يوجز تاريخ ابن الأثير ، ولكنه أصيل فى أحيان كثيرة أخرى ، وإذا نحن تركنا جانباً الجزء الأول الخاص بتحديد السنين والإحصاءات لحوادث التاريخ القديم وأعمار الأنبياء فإن الباقي عظيم القيمة ، هو يصل بنا إلى أوائل القرن السابع الهجرى . ويكفى لكى نعرف فضله أن نقول : إن أهل الغرب كانوا يقولون أحياناً : إن محمداً ﷺ أسطورة ، وحاشا لله أن يكون كذلك ، وهذا على مثال ما يقال عندهم من أن السيد المسيح أسطورة ، فلما قرأ أحد المستشرقين السيرة الموجزة - كما أوردها أبو الفدا فى تاريخه - تبين أن رسول الله ﷺ شخصية تاريخية حقاً ، وأنه قام برسالته على النحو الذى يقصه المسلمون .

★ ★ ★